الوضوح والغموض الفني الذي يتيح لعملية التلقي وما يكتنفها من انتظار وترقب أن تلعبَ دورها في المجال اللُّغوي .

والمهمة الأولى للغة أن تقوم بخلق جِسْر بين المتكلِّم والمتلقي ، فإذا عجزت – لسبب ما – عن هذه المهمة ، كان إطلاق اسم اللغة عليها خَطَلا، وقد روى الجاحظ عن بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني قولهم : « المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم ، والمتخلجة في نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفيَّة ، وبعيدة وحشيَّة ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلي ما لا يبلغه من حاجات نفسه ، إلا بغيره ، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها .

« وهذه الخِصال هى التي تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل ، وتجعل الخفيَّ منها ظاهراً ، والغائب شاهداً والبعيد قريبًا . وهي التي تلخص المتلبِّس، وتحل المنعَقِد ، وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقًا ، والمجهول معروفًا ، والوحشيَّ مألوفًا ، والغفل موسومًا ، والموسوم معلومًا ، وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع ، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ، ويدعو إليه ويحثُّ عليه ، وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف العجم .» [1]

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٥ .